قراءة في تحديات تواجه المعلم في المستقبل

إعـــداد

أ.د. قطب مصطفى سانو

عضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي،

وأستاذ الفقه وأصوله بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

ومدير المعهد العالمي لوحدة المسلمين بماليزيا

تقديم الدراسة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد

فهذه صفحات معدودة عنيت بنسج خيوطها حول ثلاثة من التحديات الجسام التي تواجه مهنة التعليم وأهلها في ظل عصر العولمة والقولبة والذوبان، وليس من مرية في أن هذه المهنة كانت ولا تزال تواجه يومًا بعد يومٍ العديد من التحديات الفكرية والتربوية والاجتماعية نتيجة ما يموج العالم اليوم من تطورات هائلة وتغيرات مذهلة. ولئن واجهت عموم الأمة الإسلامية في القرون الغابرة تحديات فكريةً وسياسية، فإنها قد أمست اليوم تواجه تحديات متنوعة ومتعددة، إذ لا يكاد ثمَّ مجال من مجالات الحياة المعاصرة إلا وقد غشياه تحدٍ من التحديات، فالتحديات الفكرية والسياسية متلاحقة، والتحديات الاجتماعية والاقتصادية متعاقبة، وأما التحديات التربوية والثقافية، فإنها لا تفتأ تداهم بشكل عنيف لم يسبق له مثيل عبر التاريخ مؤسسة الأسرة والمدرسة والمجتمع وذلك بحسبانها المؤسسة التي تقوى على مجابهة صنوف التحديات ومنازلتها إذا أحسن القائمون عليها إعدادها وتكوينها على أساس متينٍ من الرصانة والرزانة والركانة.

ولئن تصدى الأجداد والآباء في ماضي الأزمان وغابرها لمختلف التحديات التي حاولت – عبثًا – اجتثاثهم من الوجود، وذلك بما كانوا يتمتعون به – قرونئذٍ – من مناعة تربوية رصينة، وقوة إيمانية راسخة، فإنَّ تمكن أبناء الأمة اليوم من مجابهة تحديات القرن الحالي المتشابكة والمتراكمة والمتعاقبة مرهونٌ كل الرهان بمدى تمكن القائمين على شؤون الأمة من تحصين الأجيال الصاعدة بمناعات تربوية متوازنة ومستوعبة وشاهدة، كما أن ذلك مرهون بما يوليه صناع القرار في المجتمعات الإسلامية من اهتمام عظيم وإعداد رصين لعماد المؤسسة التعليمية الأهم وركنها الركين أعني المعلم الذي يعهد إليه القيام بمهمة تزويد الأجيال بالمناعة التربوية المطلوبة في هذا العصر.

وتأسيسًا على هذا، فإنه لا يمكن لأحدٍ أن ينكر أنَّ ثمة أهمية موضوعية وضرورة دينية وواقعية للاهتمام الأجل والأوثق بالمعلم وذلك بحسبانه تلك المرجعية التي يرجى منها السعي الدؤوب والعمل المخلص من أجل تحصين الأجيال الواعدة وتمكينها من مجابهة صنوف التحديات المتراكمة. وانطلاقًا من هذه المكانة التي يحتلها المعلم في زمن التحديات والنوازل والأزمات، كان لا بد من الاهتمام الفائق واللائق به وبالمناهج والبرامج التي يتم

إعـداده مـن خلالهـا، بحيث يكون إعداده إعدادًا متكاملاً وشاملا ومواكباً يمكّنه من الوعي الرزيـن علـى مخـتلف التحديات، فحسن استيعابها، ثم البحث عن السبل الممكنة لمجابهتها والتخلص منها بطريقة علمية مدروسة ومتزنة.

وتأتـي هـذه الدراسة لتتناول بشيء من التفصيل ثلاثة تحديات قديمة جديدة، وهي: الفصام النكد بين المعارف والقيم من جهةٍ وبين علوم الدين وعلوم الدنيا من جهة أخرى، وأما الـتحدي الثانـي، فإنـه يتمثل في ظهور ما نطلق عليه في هذه الدراسة بحرب القيم في ظل العولمـة، ويتمثل التحدي الثالث في تعددية مصادر التأثير وتولي عصر انفراد المعلم بالتأثير وحده دون سواه.

وقـد بذلنا ما وسعنا من جهد في تسليط الضوء على هذه التحديات مشفوعةً بما نراه مـن منهجية في التعامل معها ومجابهتها مجابهة علمية رصينة تحوّلها من كونها تحديات إلى فـرص تسـتغل لتوفير المناعة اللازمة للأجيال الصاعدة. وعسى أن تحظى هذه الورقة وما تضـمنها من آراء وأفكار بكريم تعليقات السادة العلماء والمفكرين المشاركين في هذا الملتقى العلمي الكبير.

وخـتامًا، لا يسعني إلا أن أعرب ــ نيابة عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ــ عـن جزيل شكرنا، وعميق تقديرنا لرئاسة جامعة السلطان قابوس العريقة على تنظيمها هذا المؤتمر الهام في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة، كما لا يفوتني إلا أن أعبر عن شكري العظيم وتقديري الفائق لأستاذنا الكريم، أستاذ الجيل، أ.د. علي مدكور، أمين المؤتمر ــ حفظه الله ــ على تكرمه بدعوتي للمشاركة في هذا الملتقى العظيم، وإني لأعتز بدعوته إياي، وبلقياه بعـد أن شـرفني الله على تتلمذي على يديه قبل عقدٍ ونيفٍ من الزمن، فله ولجميع الأساتذة والإخـوة الأمـاجد بكلية التربية وإدارة الجامعة التقدير العميق للجهود المباركة المبذولة في تنظـيم هذا المؤتمر، فعسى الله أن يجزي الجميع خير الجزاء، ويكتب لنا ولهم ولأمتنا الغراء التوفـيق والـنجاح والفـلاح والخـلاص مما نحن فيه من بثٍ وهوان على الناس، إنه رب المستضعفين، ومولانا ومولى المؤمنين.

١ـ نظرة في مكانة مهنة التعليم وأهلها:

لقـد كانـت مهـنة التعليم ــ ولا تزال ــ من أشرف المهن وأجلها في جميع الملل والـنحل، كما احتلت ــ ولا تزال تحتل ــ لدى الأمم المتقدمة والشعوب المتمدنة أسمى مكانة

وأعلاهـا، وقد حظيت ــ ولا تزال تحظى ــ لدى عقلاء الأمم ومفكريها بأجل تبجيل وأعلى تقدير واحترام، ذلك لأنها هي المهنة التي اعتز بها سيد المرسلين وخاتم النبيين ــ محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ــ وذلك عندما قال قولته العظيمة: إنما بعثت معلما! بل إنها المهنة التـي امتهـنها جمـيع رسل الله وأنبيائه ــ عليهم السلام ــ عبر التاريخ، واعتزوا بها أيما اعـتزاز، كما أنّ الباري ــ جل شأنه ــ وصف نفسه بهذه المهنة الشريفة، فقال عز من قائل حكيمًا: ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صـادقين، قـالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ البقرة: ٣١ــ ٣٢ وقولـه تبارك اسمه: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ العلق: ١-٥. فهذه الآيات ومثيلاتها كثيرة ومتضافرة فـي الذكر الحكيم وفي سنن الرسول الكريم ــ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ــ وتعد كلها تقريـرًا جلـيًا وتأكيدًا أمينا لتلك المكانة السامية والمرتبة العلية التي تحظى بها مهنة التعليم ورسالة المعلم في الإسلام.

ويحدثنا التاريخ بكل إنصاف وموضوعية بأنه ما استهانت أمة أو قللت من مكانة هذه المهنة ــ ناهيك عن إهمال شأنها، والاستخفاف بأهلها ــ إلا وكان التخلف والتأخر والهامشية نصيب تلك الأمة، وكذلك الحال ما رفعت أمة من شأنها، واهتمت بها وبأهلها إلا وكان التقدم والتطور والشهادة على الأمم حظ تلك الأمة[1].

من هنا، فإن ثمة أهمية قصوى وفريضة دينية تملي على الغيارى والمخلصين إحاطة هـذه المهنة وأهلها بهالةٍ من الرعاية الكريمة، والإعداد السليم القويم، إذ بصلاحها وإصلاحها تنصـلح أحـوال الأمـم، وتتقدم وتتطور الشعوب، وبفسادها وإفسادها تتخلف الأمم، وتفسد الشـعوب وتخـتل موازيـنها، بل تعيش ــ طوعًا وكرهًا ــ في مؤخرة الأمم وعلى هامش الـتاريخ. ولذلـك، لا غـرو أن تطال هذه المهنة صنوف التحديات والأزمات والقلاقل عبر العصور والدهور، بل لا عجب من أن يستهدفها الماكرون والمخربون بالتدمير والاجتثاث من الأسـاس وذلك إن باستهانة وتقليل من شأنها، أو باستخفاف بأهلها باعتبارهم من حثالة القوم، والحال أنهم من عليتهم وأشرافهم!

---

[1] لمزيد من المعلومات حول مكانة العلم وعلاقته بالإيمان، يراجع: العلم والإيمان ــ أحمد إبراهيم عمر ــ والأسس الإسلامية للعلم للدكتور محمد معين صديقي، وغيرهما كثير.

واعتبارًا بأن مستقبل الأمم والشعوب وحظهم من التقدم والتطور والنهضة والاستقرار والرفاهية، يتوقف بشكل كبيرٍ على مكانة هذه المهنة وأهلها في خططها وبرامجها، بل انطلاقًا مما تشهده هذه المهنة من ابتلاءات وتحديات داخلية وخارجية، لذلك، فإن على الغيارى والمخلصين في المجتمعات تعهد هذه المهنة الشريفة بالمراجعة والتقويم والتطوير، والمواظبة الدائبة على الارتقاء بأهلها وإعادة تأهيلهم وتكوينهم بكافة الوسائل والمعارف والعلوم التي تمكنهم من مجابهة مختلف التحديات والأزمات التي تتعرض لها المجتمعات إن بفعلٍ من أهلها أو بمكرٍ من أعدائها.

وانطلاقًا مما يشهده عالمنا المعاصر من تطور سريع في وسائل الاتصال والتواصل والتأثير والتمكين، وما نراه يومًا بعد يومٍ من تغير واسع في علاقات الأمم والشعوب بعضها ببعض، فضلاً عما نعايشه بين الفينة والأخرى من تهجم فظيع على العديد من المفاهيم والقناعات والمنطلقات التي آمن بها الشعوب قرونًا من الزمن، لذلك، فإن ثمة حاجة ملحة إلى إعادة النظر في سائر المسائل والقضايا المتعلقة بهذه المهنة وبأهلها، كما أن هنالك ضرورة آنية في الوعي المتعمق على مختلف التحديات التي تجابه هذه المهنة وآثارها القريبة والبعيدة على الأجيال الصاعدة!

ولئن كان بسط القول في التحديات التي تواجه هذه المهنة وأهلها مقدمة ضرورية لأية نظرة أو مراجعة للمناهج المعتمدة في إعداد المعلم، لذلك، فإن هذه الورقة ارتأت أن توسع ثلاثة من التحديات الجسام جانب التحقيق والتفصيل، وذلك بحسبانها أمهات التحديات التي تواجه أهل هذه المهنة في ظل تمكن مهندسي العولمة والقولبة من تحقيق العديد من الأحلام والآمال التي رسموها لأنفسهم، وصمّموا الخطط والوسائل من أجل الوصول إليها على مرأى ومسمع من المنسحبين من المشاركة الحضارية في قيادة العالم وريادته.

أجل، تتمثل تلك التحديات الثلاثة المنتقاة ــ كما أسلفنا ــ فيما يشهده مهنة التعليم من مزاحمة مقصودة ومخططة ومبيّتة لأهم ما كان ينفرد به المعلم في سالف الزمان، أعني الانفراد الواضح في التأثير التدريجي على التلميذ توجهًا ومنهجًا وتفكيرًا، فلم تعد ساحة التأثير خالية للمعلم وحده، بل لقد زاحمه ولا يزال يزاحمه في هذه الساحة عدد غير يسير من المصادر التي اصطلحنا عليها بمصادر التأثير المتمثلة في وسائل الإعلام والاتصال الحديثة من قنوات تلفزيونية، وفضائيات وتوابعهما؛ وأما التحدي الثاني، فإنه يتمثل في تلك الحرب

الصـــامتة المتسارعة بين القيم المتصارعة في هذا العصر، فإذا كانت الغاية العظمى والهدف الأسمى من التعليم تزويد المتعلم بجملةٍ حسنةٍ من القيم التي تكسبه المناعة والقوة ضد الأجسام الغريـــبة التـــي تغزوه من حينٍ لآخر، فإننا نزعم بأن مهنة التعليم تواجه اليوم أخطر تحدٍ لها ويتمـــثل هـــذا الـــتحدي فيما اصطلحنا عليه في ظهور حرب ضروس بين القيم، قيم الغالب المنتصر ماديا وعسكريا في الحروب المادية والعسكرية، وقيم المغلوب ماديا لا معنويا (=قيم وشيك على الهزيمة الشاملة).

وأمـــا الـــتحدي الثالث، فنراه تحديًا قديمًا متجددًا بتجدد الأيام والظروف والأحوال، ويتمـــثل فيما سميناه الفصام النكد المتصاعد بين الديني والدنيوي، أعني الخصام المفتعل بين المعارف والقيم، وبين علوم الدين وعلوم الدنيا، ويعد هذا التحدي في حقيقته أعظم تحدٍ وأشده لمهـــنة التعلـــيم وأهله، بل إننا نكاد نجزم بأنه أم التحديات، وأساسها، وإذا تمكن المخلصون والغـــيارى من التخلص منه، فإنهم سيقدرون ــ ولا محالة ــ من مجابهة بقية التحديات دونما كثـــير عناء أو تعب. وإنما كان هذا التحدي أم التحديات بحسبانه التحدي الذي عم به البلوى، وتســـلل على حين غرة إلى سائر المؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي، حتى غدا واقعًا يصعب التخلص منه في الذهنية التربوية الحديثة!

وعلـــى العمـــوم، هـــذه هي التحديات الثالوث التي نخالها جديرة بالمناقشة والتحليل والتحقيق والتفصيل قصد الوصول في نهاية المطاف إلى جملة من الطرائق العلمية والواقعية المعينة على مجابهتها، وصيانة مهنة التعليم وأهلها منها ومن آثارها؛ وإذ الأمر كذلك، فهلمَّ بنا لنلقي مزيدًا من الضوء على كل واحدٍ من هذه التحديات الثلاثة مشفوعًا بما نراه طريقة مثلى لمجابهتها:

٢- في التحدي الأول: تعددية مصدر التأثير على شخصية التلميذ:

لقـــد كـــان المعلم في سالف الأزمان الشخص المؤثر الأعظم والأجل في حياة التلميذ وخاصة في المراحل المبكرة من حياته، حيث إنه كان المصدر الأوحد الذي يتلقى منه التلميذ العلم والمعرفة اللذين يحددان له مستقبله، كما كان يكتسب على يديه منهجه في الحياة وطريقته في التفكير، وكان التلميذ في قديم الزمان يرى في المعلم الشخصية المثالية التي ينبغي عليه أن يحذو حذوه، ويتخلق بأخلاقه، وربما حاول بطريقة أو أخرى تقمص شخصية معلمه، وطريقته في الحياة إيمانا منه بأن تلك الطريقة هي الطريقة المثلى التي لا عوج فيها ولا أمتا.

ولقد كان المعلم حاضرا بالقوة وبالفعل في حياة التلميذ، وكان دوره في التأثير أقوى من دور أي جهة أخرى من الجهات المسؤولة عن إعداد الفرد وتربيته، وكان البيت (=الأسرة) تابعًا في معظم الأحيان لتوجيهات المعلم وتعليماته، فما يقدمه للتلميذ من توجيه وعلم ومعرفة ينعكس ذلك كله سلبًا وإيجابًا على علاقته بأسرته وبالمجتمع الذي يعيش فيه. ولا غرو في أن يحتل المعلم ــ وهو أهل لذلك ــ في الأزمان الغابرة مكانة الرسول المنقذ الذي يأتي في الغالب الأعم من أجل انتشال البشرية مما هم فيه من تيه وضياع وضيم وظلم امتثالا لقوله ــ جل جلاله ــ ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ الجمعة: ٩، وقوله عز شأنه على لسان كليمه موسى ــ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ــ ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئنا بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى﴾ طه: ٤٧.

إن هذه المكانة والمنزلة التي أعطتها الملل والنحل والمجتمعات في قديم الزمان للمعلم عبر التاريخ، لم تأت من فراغٍ، وما كان للمعلم ليحتلها لو لم يكن المصدر الأوحد الذي يتفرد ويستقل بإحداث التأثير الأعمق والأعظم في حياة التلميذ، وذلك من خلال ما يقدمه له من علم ومعرفة يحدثان في حياته تهذيبًا لسلوكه، وتغييرًا في منهج حياته، وتصقيلا ــ في الوقت نفسه ــ لشخصيته، فضلاً عن الارتقاء بأسلوبه وطريقته في التفكير والتعامل مع العالم الخارجي المحيط بدءً بأسرته، ومرورًا بجيرانه، وعروجًا على المجتمع القريب منه وانتهاء بالمجتمع البعيد منه.

لئن ظل المعلم ــ حتى إلى عهد قريب ــ ذلك المؤثر الأكبر في حياة التلميذ نتيجة تفرده واستقلاله بالعلم والمعرفة اللذين لم يكن ثمة مصدر آخر قادر على تقديمهما للتلميذ بالصورة التي يقدمها المعلم، ولئن كانت المباشرة واللقيا أهم مدخل من مداخل تأثير المعلم في التلميذ وتغيير سلوكه ومنهجه في الحياة، فإن الواقع الذي نعيشه اليوم وما يموج به عالمنا المعاصر من تغير متلاحق وسريع وتطور متعاقب على كافة الأصعدة، يوشك اليوم أن يقضي قضاءً مبرمًا على ذلك التفرد والاستقلال الذي كان ذات يومٍ للمعلم في التأثير على التلميذ، حيث غدا ثمة مصادر متعددة ومتنوعة قادرة على إحداث تأثيرات لا تقل نجاعةً وعمقًا عن التأثير الذي كان المعلم يحدثه في التلميذ، بل إنَّ تأثير بعض من المصادر الحديثة للتلقي يفوق

كثـيرًا على تأثير المعلم، ذلك لما تتمتع به تلك المصادر من قدرة فائقة على إقناع التلميذ بما تحمله من علم ومعرفة بغض النظر على القيمة الحقيقية لذلك العلم والمعرفة.

وتأتـي علـى رأس هـذه المصادر القديمة الجديدة ما يعرف اليوم بوسائل الاتصال الحديثة أو بتعبير آخر عالم الفضائيات المتمثلة بشكل خاص في التلفاز، والمذياع، والأنترنت، فكل واحدة من هذه الوسائل غدت اليوم ــ بقدرة قادر ــ تقوم بذات الدور التأثيري الذي كان يقـوم به المعلم في سالف الأزمان، بل يمكن القول بأن كل واحدة منها أمست اليوم معلِّمة في حـدٍّ ذاتها، لها تأثيرها الجلي والمباشر على شخصية التلميذ ومستقبله، وطريقته في التفكير، ومنهجه في الحياة، ولا يماري أحد في أن لها تأثيرًا بالغًا في تكوين شخصية التلميذ وتحديد وجهة نظره في الحياة، كما لا يشك أحد في أن تأثيرها لا يقل بأي حال من الأحوال عن تأثير المعلم المباشر الذي تجمعه بالتلميذ قاعة درس واحدة.

صحيح أن عددًا من هذه الوسائل كالتلفاز والمذياع أتى على وجودها في المجتمعات حيـن مـن الدهر، بيْدَ أنه من المؤكد أن تأثيرها كان في بداية الأمر محدودًا ومحصورًا في دائرة ضيقة، حيث إنه لم يكن امتلاكها من الأمر السهل الذي يقدر عليه كل فرد في المجتمع، فقـد كانـت ذات يوم من التحسينيات التي يستمتع بها طبقة معينة في المجتمع، ولم تكن في متناول الطبقات المحرومة في المجتمعات، مما جعل تأثيرها على المجتمع تأثيرًا قاصرًا على شـريحة محدودة في المجتمع، فظل المعلم ــ على الرغم من وجودها ــ المؤثر شبه الأوحد فـي حـياة عامـة التلاميذ من الطبقات الوسطى والدنيا. حتى إذا ما أقبل هذا القرنان السابق والحالـي، فإذا بهذه الوسائل تغزو سائر البيوت، ويغدو امتلاكها شأنًا يسيرًا لا يتطلب سوى دريهمات معدودة يمكن لكل فرد في المجتمع امتلاكها والاستمتاع بها وبما تجود به من برامج وقضـايا، ولهـذا، فقد أمسى تأثيرها اليوم ممتدا إلى جميع شرائح المجتمع، يستوي في ذلك الغني والفقير والوسيط بينهما.

على أنه من المعلوم أن هذه الوسائل أوحت عند ظهورها في المجتمعات أنها وسائل للترفـيه والتسلية، وأنها لا تروم في حقيقتها إحداث أي تغيير في سلوك العامة أو منهج حياة الخاصة، مما جعل السواد الأعظم من المجتمع ينظرون إليها بوصفها وسائل ترفيه وتسلية لا وسـائل تأثـير وتغيـير في المجتمعات. غير أنه مع مرور الزمن، كشفت هذه الوسائل عن غاياتها المستبطنة وأعلنت بصورة واضحة تطلعها الشديد إلى الحيلولة تدريجيا محل المعلم في

التأثير والتغيير في شخصية التلميذ الذي أبهرته ببريقها وتنوع برامجها وموضوعاتها، فغدت – بلا نزاع واختلاف – مصادر تأثير تنافس – بقوة وضراوة – المعلم في المكانة والمنزلة التي كان يحتلها في المجتمعات من قبل، ولم تعد والحال كذلك وسائل ترفيه أو تسلية، بل غدت اليوم تعد مصادر ضرورية وأساسية للتأثير على التلميذ وعلى منهجه في الحياة، وطريقته في التفكير؛ الأمر الذي جعل تفرد المعلم واستقلاله بالتأثير شأنا غابرًا، وذا دائرة ضيقة ومحدودة.

إن كل واحدة من هذه الوسائل (=مصادر التأثير والتلقي القديمة الجديدة) شهدت في الآونة الأخيرة تطورًا وتغيراً في فن الأداء والتأثير والتغيير، وفي الغايات التي من أجلها اخترعت، كما أنها أمست اليوم بأجمعها تروم – بصورة واضحة ومباشرة – الاستيلاء على تفكير التلميذ والتأثير على توجهه ومنهجه في الحياة، بل إنها – على الرغم من اتحادها الظاهري – لا تفتأ تتنافس في اختراع البرامج والموضوعات التي تغري التلميذ وتلهيه قصد الانفراد به وصنعه وفق النموذج الذي ترنو إليه تلك الوسيلة.

وتأسيسًا على هذا، فإننا نختلف إلى تقرير القول بأن تعدد مصادر التأثير في التلميذ، وتولي زمان تأثير المعلم الأوحد، يعد اليوم أهم تحدٍ فكري وتربوي لا بد للقائمين على شؤون التربية والتعليم من التيقظ له، والبحث عن السبل الكفيلة لإعادة تلك المكانة المسلوبة التي كانت ذات يوم للمعلم في المجتمعات، وخاصة أن ثمة إقبالاً متزايدًا على تلك المصادر الحديثة يفوق على الإقبال على المعلم ودروسه وأفكاره، كما أن الأيام تشهد – باستمرارٍ – ميلاً أكيدًا وثقة عمياء من لدن التلميذ بتلك المصادر أكثر من ميله وثقته في المعلم الذي يسعى جاهدًا إلى إحداث تأثير في سلوكه ومنهج حياته، بل إننا نخال الليالي حبلى بمزيد من الإقبال العارم والانطلاق المتوثب من لدن التلميذ نحو هذه المصادر، مما يصيِّرها بعدُ مصادر التأثير الأوحد في التلميذ دون سواها.

إن هذا التغير في مصادر التأثير في التلميذ يعد أمرًا جللا لا بد من الوعي عليه وعيًا شاملاً، ولا بد من أخذ كافة التدابير العلمية العملية والإجراءات السلطانية الحكيمة اللازمة من أجل التخفيف من وطأته وتأثيراته في مستقبل الأيام!

وصفوة القول، إن هذه التعددية في مصادر التأثير تعد من أجل التحديات التي يواجهها المعلم في القرن الحالي، وإن بدت واضحة نوعًا ما، غير أنها ذات أهمية بمكان،

ومقتضـــاها ضرورة البحث بحثًا حثيثًا وسريعًا عن كافة السبل الممكنة التي تجعل من المعلم واعــيا ومدركــا حجم هذا التحدي الفظيع لمكانته ومنــزلته في المجتمع، ويتطلب هذا الأمر إعــادة الــنظر بصورة جذرية في المناهج والطرق التقليدية التي تسير كليات إعداد المعلمين وكليات التربية في تكوين المعلم وإعداده، بحيث يرتقى بتلك المناهج ارتقاء مواكبًا وقادرًا على إعــداد المعلــم إعــدادًا رصينا يمكنه من منافسة مصادر التأثير الأخرى، واستعادة المنــزلة السامية والمكانة العالية التي كانت له يوم أن كان أعظم مصدرٍ للتأثير في التلميذ بحبلٍ من الله وحــبلٍ من الناس، فضلاً عن أن المعرفة الموسوعية والحضور الاجتماعي الفعّال الذي كان للمعلم في سالف الأزمان، لا بد من البحث عن سبل تفعيله واسترجاعه في ضوء هذا التحدي المتشاعب والمتشابك!.

أجل، سيظل التلميذ ــ مهما حاولت المصادر الأخرى السيطرة عليه وعلى لبه وفكره وعقلــه ــ بحاجــة ماســة إلى من يشاطره أحلامه وآماله، ومن يقاسمه تطلعاته ورغباته في الحــياة، ويعد المعلم هو ذلك المصدر الذي يفزع إليه للقيام بهذه المهمة بأمانة وثقة وإخلاص إذا أحســن توظــيف ما استجد في عالم التأثير من وسائل ومداخل لتحقيق تأثير إيجابي على التلميذ، والإسهام بفاعلية واقتدار في تحديد مصيره وتوجهه. ولا أمل في تمكن المعلم من هذا الأمــر إذا لم يتم إعداده إعدادًا متكاملا ومتوازنًا يجعل منه الشخصية القادرة على النفاذ مما تــبقى له مــن مكانــة نحو إحداث تأثيرات إيجابيّة جذرية عميقة في حياة التلميذ، تجعل من التلمــيذ ذلك الإنسان القوي المتماسك أمام مختلف الإغراءات والإلهاءات التي تتفنن المصادر الأخرى في تحقيقها سعيًا إلى الاستيلاء عليه روحًا وجسمًا، عقلاً وقلبًا، ولحمًا ودمًا.

ومهمــا يكن من شيءٍ، فإن التلميذ المستهدف بالتأثير والتغيير يغدو ــ ولا محالة ــ فريســة أو ضــحية للأقــوى تأثيرًا من هذه الوسائل منضافًا إليها المعلم الذي يباشر تعليمه وتهذيــبه وتأديبه بشكل مباشر. ومن هنا، يكمن التحدي الأعظم القديم الجديد للمعلم أمام هذه الوســائل التــي ترمي برمتها إلى التأثير على التلميذ سلوكًا وتفكيرًا ومنهج حياة، وليس أمام المعلم سوى الصمود ومجابهة هذا التحدي بما يملكه من هيبةٍ وإعدادٍ متكاملٍ ومتناسق وملكة للإقــناع والتأثير، فإن أبى المجابهة والصمود كان أمامه الاستسلام بما تجود به هذه الوسائل مــن أفكار وآراء وتوجهات، لا بد للتلميذ ــ الفريسة والضحية ــ من تلقيها والصدور عنها بوعي وبلا وعي!

٣- في التحدي الثاني: الحرب الضروس بين القيم في ظل تلاحق الأحداث وتتابعها:

لا تـزال ذاكـرة التاريخ مختزنة بالعديد من ذكريات ومآسي الحروب التي شهدتها البشـرية عـبر تاريخها المديد سواء منها تلك الحروب التي قامت وأبادت فعلاً أم تلك التي توقعهـا الناس ولكنها لم تقم بقدرة القادر، ثم طواها النسيان بعد أن تخلى عنها أطرافها، ولا تـزال ذاكـرة التاريخ ناضحةً بأحاديث الناس عن آخر حروب القرن المنصرم، فقبل عقدٍ من الزمـن، كان ثمة حديثٌ مكرور في عالم الناس عن احتمالية قيام حرب في الفضاء أو حرب فـي الـنجوم، وما هي إلا سنوات فإذا بالعالم يتبرم ويتبرأ من تلك الحرب، فحمى الله العباد والبلاد من مآسيها وويلاتها المتوقعة على البشرية جمعاء!

وانطلاقًـا ممـا يشـهده العـالم المعاصر من زوال بلا رجعة لثنائيّة القوى وثنائيّة المعسـكر، بـل اعتدادًا بانفراد قوة أحادية بقيادة العالم ورسم سياساته، وبسط نفوذها وفرض هيمنتها على سائر الأمم والشعوب، لذلك، نرى زهادةً مقصودة من لدن مهندسي سياسات تلك القوة عن الحديث عن الجديد من الحروب العالمية الوشيكة أو المتوقعة على الأمد البعيد، ذلك لأن الجو قد خلا لها، وغدت قبرة بمعمر، فلها أن تبيض وتصفر وتنقر ما تشاء أن تنقّر!

واعتـبارًا بمبدأ غرام المغلوب وولعه باتباع الغالب في منهجه وأسلوبه وطريقته في الحـياة، بل انطلاقًا من أن القوة الغالبة والمهيمنة تحمل بين جنباتها قيمًا تؤمن بها، وتتمثلها، وتحاول جاهدة ــ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ــ فرضها على المغلوبين، لتتحقق لها بذلك الغلبة المادية والمعنوية على المغلوبين، فيمسي المغلوبون تابعين لها قلبًا وقالبًا؛ لهذا، فلا غرو أن يسـتيقظ العـالم المغلوب على أمره على صيحات مخططة وشعارات مشبوهة تحمل بين طـياتها قيما معبرة عما ترنو إليه القوة الغالبة المنتصرة ماديا لا معنويا، وتسعى إلى فرضها على الأمم المغلوبة ماديا لا معنويا.

في خضم تلك الصيحات المكرورة، لأولي النهى والألباب في المجتمعات، أن يدركوا بـأن ثمـة حـربًا عالمـية بدأت تكشف عن أنيابها، ولن تكون في هذه المرة حرب دبابات وطائـرات وقاذفـات، بـل إنهـا حرب تسمو على استخدام هذه الوسائل البدائية في الإقناع والتأثير، ويمكننا أن نصطلح عليها بحرب القيم، ونروم به الحرب الواقعة اليوم بين القيم التي تحملها القوة الغالبة الغازية والقيم التي تعتصم بها القوى المغلوبة المندحرة والمهزومة ماديا، وترى فيها رمقها الأخير بعد أن جرّدت من كل قوة كانت تحملها.

إنَّ تلاحق الأحداث العالمية الأخيرة في الأعوام القليلة المنصرمة، يؤكد لأولي الألباب أن حربًا ضروسًا بدأت ــ بالقوة وبالفعل ــ بين القيم، وتختلف طبيعة هذه الحرب عن طبائع الحروب السابقة، ذلك لأنَّ الحروب السابقة كانت في مضامينها حروبًا مادية بحتة، وكانت الغلبة فيها دومًا وأبدًا لمن يتمكن من الأسلحة والمعدات والذخائر، وكانت في معظم الأحيان حروبًا غير متكافئة، وأما الحرب الجديدة ــ أعني حرب القيم ــ فإنها ليست مادية بأي حالٍ من الأحوال، ولا يمكن أن تكون الغلبة فيها للطرف المتفوق ماديًا أو عسكريًا، كما لا يمكن حسمها بجرة قلمٍ، أو بتمنٍ متمنٍ، وإنما ستكون الغلبة والحسم للطرف الذي يقدر على تقديم قيمه بصورة مقنعةٍ متزنة بعيدًا عن الغلو والتطرف والتمني والرجاء.

وإذا كان المستهدف بهذه الحرب الجديدة الجيل الصاعد من النشء، وكانت غاية كل طرف من أطرافها سواء الغالب والمغلوب، تلقين النشء بقيمه بقوةٍ أو بغيرها، فإن الحقيقة التي لا يمارى فيها أن مؤسسات التعليم والتربية هي المسؤولة مسؤوليةً أولية عن تحقيق النصر والفوز في هذه الحرب، وليس من الوارد تحقيق أي نصر إذا لم تتمكن تلك المؤسسات من إقناع النشء بالقيم التي تحملها وتقوم عليها.

ومن هنا، فإننا أن نخلص إلى تقرير القول بأن هذه الحرب تمثل تحديا جبارًا للمؤسسة التعليمية بشكل عام، وللمعلم بشكل خاصٍ، وأن طبيعة هذا التحدي الجديد في شكل هذه الحرب تختلف عن طبيعة التحدي السابق، ذلك لأنَّه تحدٍ ذو بعدٍ معنوي، لا يخضع للمقايسة والتقويم، ولأن الانتصار فيها لا يتحقق من خلال القوى المادية والعسكرية، بل ينتصر فيها من كانت قيمه ذات أسس راسخةٍ ثابتة مباركة من خالق الكون ومدبره، وتمكن أهلها من حسن عرضها وتقديمها للناس بصورة مقنعة ومبسطة؛ فهذان شرطان ضروريان لتحقيق الانتصار في هذه الحرب، فإذا تخلف أي واحدٍ منهما لم يتحقق نصر حقيقي.

وانطلاقًا من قناعتنا الثابتة بأن القيم الإسلامية قيم راسخة وثابتة ومباركة، فإن المهمة تبقى في الشرط الآخر، وهو مدى تمكن من يحمل هذه القيم من تقديمها للآخرين بصورة مقنعة ومبسَّطة، وهذا الشرط هو الذي يمثل قطب الرحى في هذه الحرب بالنسبة لحاملي القيم الإسلامية؛ فإذا لم يتمكن المعلم من تحقيق هذا الشرط، فإنَّ حظه في تحقيق النصر في العالم المعاصر سيكون ضئيلاً جدًا.

على أنه من الملاحظ أن الطرف الآخر ــ أعني القوة الغالبة ماديا ــ يملك اليوم من الوسائل والإمكانات التي تمكنه من إقناع النشء بقيمه الممزوجة بكثيرٍ من بقايا وثنيات الإغريق واليونان، بيْدَ أنَّ افتقار تلك القيم إلى مباركة السماء، يجعلنا نراهن بأنَّ حظه في النصر لا يتحقق في النهاية، وإنما يمكن له أن ينال شيئًا من الانتصار الجزئي وذلك بحبل من الله وحبل من الناس تعذيبًا للمغلوب الذي ركن إلى الحياة وتمنى على الله الأماني ظلمًا وجورًا!

وتأسيسًا على هذا، فإننا نخلص إلى القول بأن حرب القيم هي أحد التحديات التربوية والفكرية المعاصرة التي ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار عند إعداد المعلم وتكوينه في هذا العصر، بحيث يصبح مؤهلا وقادرًا على مجابهة هذا التحدي، ومنازلته بثقةٍ واقتدار؛ فإذا تشبَّع المعلم من وسائل الإقناع التي تعينه على تمكين النشء من قبول القيم الثابتة وتمثلها، والصدور عنها في حياتهم، فإنه يغدو بعدُ قادرًا على حمايتهم من الوقوع فريسة لقيم القوة الغالبة المفتقرة إلى مباركة خالق الكون ومدبره.

ومن ثم، فإن الحاجة تمس اليوم إلى إعداد النظر بصورة جذرية وعاجلة في كافة الوسائل والمناهج التعليمية التقليدية التي تقوم على فرض القيم بالقوة وإلزام النشء بها، ولا بدَّ من أن يحل محل تلك الوسائل وسائل التشويق والترغيب والتحبيب والإقناع التي تجعل النشء يقبل على هذه القيم ويتمثلها بحرية واختيار، فعقيدة الإسلام ترفض الإكراه، وتتبرأ من فرض نفسها على الآخرين بقوة السيف، بل تنبثق من قوله جلَّ في علاه ﴿لا إكراه في الدين﴾.

وإذ الأمر كذلك، وهو كذلك، فإننا ننتهي إلى تقرير القول بأن هذا التحدي والذي قبله يفرضان على صناع القرار في العالم الإسلامي إعادة النظر في المناهج والطرق التقليدية المعتمدة في إعداد المعلم إعدادًا يمكنه من تجاوز هذين التحديين، ومجابهتهما بطريقة ناجعة، وسوف ينتج عن هذه المراجعة ارتقاء بمضمون تلك المناهج التقليدية، حيث يتم مراجعتها وتصفيتها مما لحق بها من تصورات العصور الغابرة التي كانت تتخذ الإلزام والإجبار منهجا للإقناع والتعليم والتثقيف. وأما وقد تبدلت الأحوال، وتغيرت الظروف، فإنه لا بدَّ من تغيير تلك المناهج، وتبديل تلك الوسائل، واعتماد مناهج ووسائل مواكبة وقادرة على إعداد المعلم ذلك الإعداد الرصين المتزن.

٤: في التحدي الثالث: الفصام النكد المتصاعد بين علوم الدين وعلوم الدنيا (-الديني والدنيوي) في ظل العولمة والقولبة:

لئن كانت حرب القيم الآخذة في الظهور والبروز في الآونة الأخيرة أحد التحديات الجسام التي تواجه المعلِّم في القرن الحالي، ولئن زاحمت المعلمَ في تأثيره مصادر تأثير أخرى عديدة، فإننا لعلى يقين بأن تلك الحرب ــ حرب القيم ــ لم تأت من فراغ، وما كان لها لتأتي سدى، بل تعدُّ نتيجةً حتميةً لما سبقته من أوضاع، وظروف استثنائية لا يزال العالم يعاني منها، كما أنَّنا لعلى ثقةٍ تامةٍ بأنَّ كشف تلك المصادر ــ مصادر التأثير الجديدة ــ عن أنيابها وإظهارها غاياتها وأهدافها التي ضنَّت بها فترة من الزمن، لم تختر هذا القرن بعينه اعتباطًا للتباهي بمزاحمة المعلم فيما كان يتمتع به قرونًا مديدةً من تأثير في شخصية التلميذ، وتوجهه، ومنهجه في الحياة، بل إن كلا من التحديين يمثل في حقيقته تجليا لظاهرة خطيرة طالما حذَّر من ويلاتها الغيارى من أبناء الأمة، وتنبه لانعكاساتها وآثارها كثير من أولي البصيرة وبعد النظر في عالمنا الإسلامي، بيد أن إنذاراتهم وتحذيراتهم ذهبت مع أدراج الرياح ولم يعبأ بها أحد من صناع القرار.

إنها ظاهرة الفصام النكد المفتعل بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وبتعبير آخر هي ظاهرة الصراع المفتعل ظلمًا وجورًا بين الديني والدنيوي، واعتبارهما نقيضين لا يمكن الجمع بينهما بأي حالٍ من الأحوال؛ وليس بخاف على أحدٍ منا في أنَّ هذه الظاهرة أتى عليها حينٌ من الدهر في عالمنا الإسلامي، ولا تعد ظاهرة حديثة في الواقع المعاصر، بل هي ضاربة الجذور في أعماق تاريخ الفصل المكفهر المفتعل بين الدين والدولة، وبين عالم الشهادة وعالم الغيب.

ونتيجة لهذه الظاهرة الغريبة على المذهبية الإسلامية الجامعة الناصعة الشاملة، لم يكن ثمة غرابةٌ في أن تحل الثنائيّة محل التوحيد في كل مجالٍ من مجالات الحياة، كما لم يكن من عجبٍ في أن تتبنى المؤسسات التعليمية عن بكرة أبيها في عالمنا الإسلامي فكرة الفصل الجذري بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وبين الواقع والمثال، وبين الروح والمادة، وبين العقل والنقل[2]، ونتيجة لذلك، فقد أنتجت المؤسسات التعليمية بما فيها كليات التربية وكليات إعداد المعلمين ــ معلمين يتسمون في الغالب الأعم بالنظرة الأحادية النصفية لسائر القضايا

[2] لمزيد من التفاصيل يراجع: أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية ــ زغلول راغب النجار ــ طبعة أولى لعام ١٩٩٠م.

والمسائل، ويؤمنون إيمانًا كاملاً بأنَّ الدينيَّ والدنيويَّ لا يمكن لهما أن يجتمعا بأي حالٍ من الأحوال، وأنَّ مصدر التوجيه والتلقي للدنيوي هو العقل الإنساني والتجربة الإنسانية، والواقع المعاش، ولا علاقة لوحي السماء بالدنيوي إن توجيهًا أو ترشيدًا أو تقويمًا، ولم تكتف المؤسسات التعليمية بإنبات هذا الصنف من المعلمين، بل أنبتت في مقابله صنفًا آخر من المعلمين على نقيض الصنف الأول، إنهم معلمون يرفضون كل دنيويّ، ويحسبونه شرًا، ويؤمنون إيمانًا راسخًا بأنه لا يمكن للدنيوي أن يقود صاحبه إلى نعيم الجنان، بل إنهم لا يرون أي إمكانية للربط بين الواقع والمثال، ويرون ــ بدلاً من ذلك كله ــ ضرورة تعميق الهوة والفجوة بين الديني والدنيوي، ذلك لأن الديني في خلد أكثرهم مقدس وطاهر، لا ينبغي مزجه ولا خلطه بالدنيوي المليء بصنوف الدنس والآثام!

إن هذه الظاهرة ــ ظاهرة الفصام النكد ــ كانت ولا تزال تمثل في نظرنا تحديا حقيقيًا قائما ذا أبعادٍ خطيرة في ظل الظروف العالمية الراهنة التي تزيد كثيرًا من بلهائنا المخلصين إيمانًا بتعذر إمكانية إيجاد وصل حقيقي بين الديني والدنيوي، والنظر إليهما بحسبانهما أمرين متكاملين غير متعارضين[3]. ورحم الله أبو الأعلى المودودي عندما أشار إلى الآثار السلبية التي نتجت عن تقسيم العلوم إلى علوم الدين وعلوم الدنيا، فقال: "..وفي الحقيقة أن تقسيم العلوم إلى (دينية) وأخرى (دنيوية) يقوم على أساس نظرية الفصل بين الدين والحياة. وتعتبر مثل هذه النظرية متعارضة تعارضا تاما مع الإسلام الحنيف. ذلك أن الدين في نظر الإسلام ليس شيئًا منفصلا عن الحياة. وعلى هذا، فاعتبار العالم ملك الله تبارك وتعالى، واعتبار الناس فيه عبادًا لله، يحيون وفق مشيئته، وحسب تعاليمه، لهو الدين بمعناه الصحيح، وهو في نفس الوقت الأساس الذي تقوم عليه الشريعة الإسلامية. وهكذا، فإن مثل هذا التصور للحياة البشرية على هذه الأرض يؤدي إلى تحويل جميع العلوم الدنيوية إلى علوم دينية. أما تقسيم العلوم إلى قسمين: قسم ديني يدرس من وجهة النظر الإلهية، وآخر دنيوي، يدرس من وجهة النظر الأخرى المقابلة يفضي بأجيالنا إلى الاعتقاد بأن الدين شيء، والحياة

[3] لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، يراجع: إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات: ورقة عمل ــ طه جابر العلواني ــ منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، طبعة أولى لعام ١٩٩١م.

شـــيء آخر، وأن كلا منهما يسير في مجرى لا صلة له بالآخر. وهكذا يصبح التوفيق بينهما أمرًا صعبًا للغاية بالنسبة لهذه الأجيال.."[٤]

أجـــل، إنه ليس من الأمر اليسير مكنة المعلم من مواجهة التحديين السابقين إذا لم يتم استئصـــال هذا التحدي والتخلص منه، ذلك لا يرجى من المعلم الوقوف صامدًا أمام التحديين الســـابقين، ما لم يتم إعداده إعدادًا متكاملاً يتجاوز ــ بقناعة تامة ــ هذه الثنائية المفتعلة بين الديني والدنيوي، وتغدو نظرته إلى الحياة والوجود نظرة متكاملة يعد فيها الديني أخا الدنيوي، والدنيوي قرين الديني، ويستفرغ طاقته في إبراز ما بينهما من تداخل وترابط وتواصل، ويبذل قصـــارى جهده في ترسيخ فكرة التكامل بين المعارف والقيم، وبين علوم الدين وعلوم الدنيا، فـــإذا لـــم يتمتع المعلم بدراية كافية وفهم دقيق لهذا الأمر، فأنى له المكنة من مجابهة التحدي المتمثل في حرب القيم إذا كان زاده في القيم التي يقوم عليها الديني مغشوشًا وبخسًا! بل أنى لـــه المقـــدرة على مجابهة تحدي مصادر التأثير الأخرى، إذا كان حظه من المعارف والعلوم التي يقوم عليها الدنيوي بائسًا وضحلاً.

وتأسيسًـــا علـــى هذا، فإنه يمكن الخلوص إلى القول بأن تحدي هذه الظاهرة القديمة الحديثة يعد أهم التحديات وأشدها، ومجابهته ينبغي أن تسبق مجابهة غيره من التحديات، ذلك لأن التمكن من مجابهته كفيل من التمكن من مجابهة غيره من التحديات وخاصة تحدي حرب القيم وتحدي تعددية مصادر التأثير.

على أنَّ مجابهة هذا التحدي لا تدخل ضمن إمكانات المعلم في الظروف العادية، بل إنهـــا تعد مهمة ينبغي أن تنهض بها المؤسسات التعليمية التي تعد المعلم، وتسهر على تكوينه وتأهيله، فما لم تتبادر هذه المؤسسات ــ وخصوصا كليات التربية وكليات إعداد المعلمين ــ إلـــى معالجة هذه الظاهرة والتبرؤ منها بطريقة تدريجية وجذرية، فإنَّه من المتعذر كل التعذر ــ بـــل مـــن المســـتحيل ــ أن يقوى المعلم من مجابهة سائر التحديات التي يموج بها عالمنا المعاصر.

إن التصـــدي لهـــذا التحدي لا يعني ــ بأي حالٍ من الأحوال ــ قفزًا عشوائيًا على الواقـــع، كمـــا لا يتطلـــب ــ فـــي حقيقة الأمر ــ حلا سحريًا، بل يحتاج إلى مراجعة شاملة

---

[٤] انظر: المنهج الإسلامي الجديد للتربية والتعليم ــ أبو الأعلى المودودي ــ جمع وتقديم وتعليق محمد مهدي الإستانبولي (بيروت، المكتب الإسلامي، طبعة عام ١٩٨٢م) ص٢٣

وجريـــئة لمحـــتويات المناهج التقليدية التي يتم في ضوئها إعداد المعلم وتكوينه، بحيث يعاد تصـــميمها تصـــميمًا قائمًا على النظرة الشمولية والتكاملية بين علوم الدين وعلوم الدنيا، بين الواقـــع والمثال، وبين عالم الشهادة وعالم الغيب، فالنظرة الإسلامية إلى العلم والمعرفة تنبثق مـــن رؤيـــة توحـــيدية تســـتمدُ أسسها من مبدأ التوحيد القائم على وجوب التكامل بين الديني والدنيوي، وعلى وجوب الإيمان بأنَّ الديني أخو الدنيوي، وأنَّ الدنيوي أخو الديني، ولا يوجد فصـــامٌ بلْـــةَ انفصـــالٌ بينهما، كما تنطلق تلك الرؤية من مبدأ كون عالم الشهادة مقدمة لعالم الغيـــب، وأنَّ هذين العالمين يتكاملان ولا يمكن الفصل بينهما[5]. وبتعبير آخر، فإن "..المعرفة عـــن طـــريق الوحـــي، والمعرفة عن طريق العقل والكون يتكاملان، ولا يتعارضان، فالعقل الإنســـاني قـــادر على التفاعل مع الكون والتأمل فيه، والتجريب على الأشياء الموجودة فيه، والمعـــرفة العقلـــية الصحيحة لا تقع خارج دائرة المعرفة التي تدعو إليها الشريعة، وصريح المعقـــول لا يـــتعارض مع صريح المنقول.."[6] فالفصل التعسفي بين علوم الشريعة على أنها علوم للدين، وبين العلوم الحديثة على أنها علوم للدنيا، قد أحدث كثيرًا من المتاعب التي تعاني منها الأجيال الحديثة، وهذا الفصل لا يقره الإسلام على الإطلاق.."[7]

وعلـــيه، فإنـــنا نخلـــص إلـــى تقرير القول بأن هذا التحدي يمثل ــ كما أسلفنا ــ أم الـــتحديات التـــي تواجـــه المعلم في العصر الراهن، وإذا لم يتم تداركه ومجابهته، فإنَّ الأيام القادمـــات ســـتزيده ضراوة وشراسةً، مما يتعذر معه تمكن المعلم من إنقاذ النشء من مختلف التحديات التي لا تزال الأيام حبلى بها.

٥: في منهجية مقترحة لمجابهة التحديات السالف ذكرها:

لئن أسلفنا القول آنفًا بأن الفصام النكد بين القيم والمعارف من جهةٍ، وبين علوم الدين وعلوم الدنيا من جهة أخرى، يمثل أهمَّ تحدٍ يواجه المعلِّم في العصر الراهن، كما يمثل أصل سائر التحديات التي يتناولها الباحثون في دراساتهم، لذلك، فإننا نرى أن مجابهة كافة التحديات

---

[5] لمزيد من التفاصيل حول هذا الأمر، يراجع: صياغة العلوم صياغة إسلامية ــ إسماعيل الفاروقي ــ (منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي) طبعة أولى، ١٩٨٩م،

[6] انظر: مناهج التربية: أسسها وتطبيقها ــ علي أحمد مدكور ــ (القاهرة، دار الفكر العربي، طبعة ٢٠٠١) ص٦٣ وما بعدها.

[7] انظر: نظريات المناهج التربوية ــ علي أحمد مدكور ــ (القاهرة، دار الفكر العربي، طبعة ١٩٩٧م) ص٢٦٧

المعاصرة ينبغي لها أن تبدأ من مجابهة هذا التحدي بصورة مركزة وعاجلة بحسبانه الأساس والأصل الذي يتفرع عنه بقية التحديات. وفضلا عن ذلك، فإن التواني في مجابهة هذا التحدي الخطير من شأنه – لا سمح الله – مضاعفة التحديات وتراكمها في المستقبل القريب، ذلك لأنه ليس من الوارد بتاتًا أن يتمكن المعلم من مجابهة تحديات العصر أنى كان نوعه إذا لم يتم إعداده إعدادًا علميًا متكاملا يجرده من آفة النظرة الأحادية المتشائمة أو المنبهرة إلى الأشياء، ومن آفة الفصل المفعتل بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

إن الأمل معقود في أن يبادر صناع القرار والقائمون على المؤسسات التعليمية في عالمنا الإسلامي إلى التصدي لهذا التحدي الآخذ في التصاعد والاستفحال، وذلك بالقيام بمراجعة جذرية ومخلصة وأمينة لجملة من المسائل والقضايا المتعلقة بمهنة التعليم نظمًا ومؤسسة وإدارةً، وذلك قصد الارتقاء بها وتجديد ما ران عليه البلى من قضاياها ومسائلها[8].

واعتبارًا بتعذر القيام الفوري والسريع بالمراجعة الشاملة لهذه المهنة – نظمًا ومؤسسة وإدارةً – وذلك لأسباب موضوعية كثيرة، لذلك، فإننا نرى أنه بإمكان الغيارى والمخلصين الراغبين في تطوير هذه المهنة، القيام بمراجعة عاجلة وشاملة لأهم ما يقف عليها مستقبل هذه المهنة، أعني المناهج التقليدية التي يتم من خلالها إعداد المعلم وتكوينه في عالمنا الإسلامي، فواقعنا المعاصر يملي علينا جميعًا البحث عن كافة السبل الممكنة للارتقاء بتلك المناهج لتغدو على مستوى التحديات التي تواجهها أمتنا في عصر العولمة والقولبة والنظام العالمي الأحادي الجديد.

وبطبيعة الحال، إننا نبادر إلى تقرير القول بأن دعوتنا إلى مراجعة محتوى المناهج التقليدية مراجعة جذرية وشاملة، لا تعني – بأي حال من الأحوال – الإذعان لحلم حالم، أو مكر ماكرٍ، كما لا تعني – وحاشاها – ترديدًا للغريب العجيب الذي جاد به هذا الزمان من مطالبة بعض الشعوب غيرها بتغيير مناهجها لتلبي خططها وغاياتها ولتغدو لا معبرة عن آمال تلك الشعوب وأحلامها وأهدافها وغاياتها في الحياة، وإنما لآمال الشعوب الغالبة وأهدافها وغاياتها!

---

[8] لمزيد من الاقتراحات حول هذه الأزمة، يراجع أعمال المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي بجزئيه حول المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، طبعة أولى لعام ١٩٩٠م

إنَّ دعوتنا – أيها السادة – إلى مراجعة المناهج التقليدية محتوى ووسائل، لا تمت بأدنى صلة بتلك الدعوة الغربية العجيبة الشاذة التي استيقظ عليها العالم الإسلامي عشية تأكد القوى الغازية من هزيمته ماديا وعسكريا، بل إننا نبرأ إلى الله منها ومن مصادرها، ونحسبها كلمة حق أريد بها باطل!

بل إن دعوتنا إلى مراجعة المناهج ترتكز وتنطلق من المنهج الإسلامي الراسخ الذي يقوم على المداومة على مبدأ محاسبة الذات، وتزكية النفس من وقت إلى آخر مصداقًا لقوله – صلى الله عليه وآله وسلم – حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، كما تنطلق هذه الدعوة من قناعتنا بأن تجديد الدين تعليمًا وتطبيقًا مأمور به بنص قوله – صلَّى الله عليه وآله وسلم – إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها أمر دينها، أخرجه أبو داود في سننه. وتعد المراجعة نوعًا من أنواع التجديد إذ لا تجديد بلا مراجعة، وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فإذا كان التجديد واجبًا، وكان تحقيق التجديد متوقفا على المراجعة، فإن المراجعة تعد والحال كذلك واجبة بحسبانها مقدمة الواجب، ومقدمة الواجب عند أهل العلم بالأصول واجب.

وفضلاً عن هذا كله، فإنَّ الدعوة إلى مراجعة المناهج تنبثق عن إيماننا بأن الاجتهادات البشرية أنى كانت درجتها لم تسم – ذات يوم – في تاريخنا الإسلامي على المراجعة والتصحيح والتقويم والتعديل والتطوير، ويستوي في ذلك الاجتهادات التي نسجت حول معاني نصوص الكتاب والسنة عقيدةً وشريعةً، والاجتهادات التي رامت بيان حكم الشرع في مستجدات الحياة؛ واعتبارًا بأن المناهج التقليدية محتوى ووسائل تعدُّ – برمتها – اجتهادات بشرية تنامت وتطورت عبر التاريخ هادفة رسم السبل الأمثل للتعامل مع الواقع الإنساني، وإعداد الفرد الصالح النافع لنفسه ولمجتمعه ولمن حوله، لذلك، فإنها هي الأخرى لا يمكن لها أن تسمو على المراجعة والتقويم والتعديل والتطوير بين الفينة والأخرى، وذلك قصد الارتقاء بها، وتطعيمها بما استجد في عالم الناس من قضايا ومسائل؛ وليس من سديد الرأي ولا من حصيف النظر، الجمود على هذه المناهج إن محتوى ووسائل، واتخاذها نصوصًا مقدسة منزلة من عند الله، بل لا بد من تعهدها بالتقويم والتصويب والتعديل والتغيير والتطوير لمواكبة الواقع الذي يعيش فيه الناس.

فالمناهج ــ كما يقول أحد التربويين المعاصرين ــ ليست آنة منزلة ".. مطيبة بعبير الألوهية، وإشراقة من الجنة لا يشوب صفاءها كدرة أو دكنة، لا.. بل هي ككل عمل إنساني، يبدو نقصه عندما يظن صاحبه أنّه تم واكتمل؛ وإلا لما كانت أرقى أمم الأرض تعدل مناهجها كــل مدة حسب مقتضيات العصر والبيئة، وتقدم العلوم، وفنون التربية.. فنظرتنا إلى المناهج يجــب ألا تكــون نظــرة العــابد إلى..قرآنه. بل نظرة المسافر إلى الطريق الذي يستخدمه، ويسترشــد به لبلوغ غايته، وتحقيق هدفه. وما أغبى المسافر الذي لا يمتد نظره إلى أبعد من الخط المرسوم للطريق.."[9]!

وإذ الأمــر كذلــك، وهــو كذلــك، فإننا نفزع إلى تقرير القول بأنّ مراجعة المناهج التقلــيدية ينبغــي لها أن تنطلق من فكرة ضرورة التكامل الأمين بين العلوم والقيم من ناحية، وبيــن علوم الدين وعلوم الدنيا من ناحية أخرى، بحيث يتم التخلص من الفصام النكد المفتعل بيــن هذه المعارف والقيم وبين هذه العلوم المتداخلة والمتكاملة والمترابطة، ويغدو ثمة وصل وتــرابط بيــنها، وليتم ترجمة هذا التكامل المنشود بصورة واضحة وجلية في كافة محتويات المواد، كما يتم ترجمته أيضًا في الوسائل التعليمية من خلال الاستعانة بكل وسيلة نافعة بغض النظر عن مصدرها انطلاقًا من مبدأ الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها.

ومــرد هذا كله إلى إيماننا الراسخ بأنه إذا كان ما يسمى اليوم بعلوم الدين (= العلوم الشــرعية) "..إجبارية وفرض عين في كل الأوقات، فإن العلوم الكونية الأخرى كالرياضيات والفــيزياء والكيمــياء والإنســانيات وعلوم المهن والحرف والصناعات يكون تعلمها إجباريا وفرض عين عند ما يكون المجتمع في حاجة إليها.."[10] ولا يخفى على كل ذي بصيرة وعقل مــدى حاجــة الشعوب الإسلامية المنكوبة إلى هذه العلوم التي أصبحنا ــ بفعل من مهندسي السياسات والأنظمة التعليمية في عالمنا الإسلامي ــ نستهلكها ولا ننتجها!

إنّ فكــرة التكامل بين علوم الدين وعلوم الدنيا لا تعني بأي حال من الأحوال قضاء علــى فكرة التخصص الدقيق، ولكنها تعني نفي التنافر والتناقض بين الديني والدنيوي، وبين الــنقل والعقل، وبين عالم الغيب وعالم الشهادة، كما تعني تمكين المتعلم من المبادئ والأسس

---

[9] انظر: مناهج وأساليب في التربيــة والتعليم ــ إلياس ديب ــ (بيروت، دار الكتاب اللبناني، طبعة ثالثة لعام ١٩٨١م) ص١٤ بتصرف واختصار.

[10] انظر: منهجيــــة تدريس المواد الشرعية ــ علي أحمد مدكور ــ (القاهرة، دار الفكر العربي، طبعة عام ١٩٩٩م) ص٦٠ وما بعدها، وانظر للمؤلف أيضا منهج التربية الإسلامية (الكويت، مكتبة الفلاح، طبعة أولى لعام ١٩٨٧م).

العامـــة التي تقوم عليها النظرة الإسلامية الناصعة إلى الإنسان، والكون، والحياة، والوجود، فضـــلا عـــن أنهـــا تعني جعل تعاليم وحي السماء قيّما على الواقع المعيش، وتطويع الواقع الإنســـاني بجمـــيع شـــعابه لمقاصد خالق الكون ومدبره، ومقتضى هذا التكامل تزويد المعلم بالكليات والثوابت والقيم التي لا ينبغي أن يحيد عنها الفرد أنى كان تخصصه وزاده المعرفي.

علـــى أن مـــراجعة المناهج التقليدية لا ينبغي لها أن تقف عند محتوياتها وحمولاتها ومضـــامينها وأهدافهـــا، ومراميها، بل لا بد لها من أن تنتظم مراجعة أمينة للوسائل التعليمية التقليدية التي يتم استخدامها في تعليم النشء وتلقينهم بقيم الإسلام النقية وأصوله الثابتة، فليس مـــن شـــك في أن جزءً كبيرًا من تلك الوسائل التقليدية قد عفا عليها الزمن، ولم تعد صالحة لتعلـــيم نـــشء القـــرن الحـــادي والعشرين، فأساليب الترهيب والضرب والتأليم وسواها من الأساليب البدائية القديمة، لم تعد أساليب ناجعة مفيدة، بل ضررها أكبر من نفعها في كثير من الأحيان، وكذلك الحال في أساليب التسلط والتكميم والاستعلاء والازدراء وسواها من الأساليب التعليمـــية الفاشلة، لم تعد كل أولئك محل تقدير أو ترحيب في هذا العصر. وبدلاً منها جميعًا، ينبغي العودة عودة مباركة وحميدة إلى الأساليب الإسلامية الأساسية في التربية والتعليم أعني أســـاليب التشويق والترغيب والإقناع والانفتاح والحرية وسواها، فهذه الأساليب الراقية كانت فـــي الأســـاس أســـاليب إســـلامية، غير أنها انزوت واختفت بقدرة قادر في الحياة الإسلامية المعاصرة، وحلت محلها تلك الأساليب التي لا تتناسب بأي حالٍ من الأحوال مع واقع النشء في القرن الحالي.

إن الطفل الناشئ يحتاج إلى خطاب "يبني ويكوّن ويغرس في نفسه الصفات والطاقات النفسية الإيجابية التي تدفعه إلى الثقة بنفسه، والرغبة في أداء مهمته في الحياة والاعتزاز بها، والشوق إلى النجاح فيها، ومعرفة أسرارها، بما يجعل شخصيته تتجلى بالقوة والثقة والاعتزاز والمـــبادرة وما يتصل بها من صفات لازمة لنجاح الأمة في أداء مهمتها في الخلافة..إن من المهـــم أن نجنّب الطفل في مراحل تكوينه النفسي خطاب الإرهاب والتخويف السلبي المدمر للطاقـــات النفسية اللازمة لصفات الشجاعة والثقة والاعتزاز والمبادرة، وأن ننهج في تربيته وفـــي الإجابة على تساؤلاته منهج الحب والتشجيع فيما يتعلق بمفهومه ونظرته وعلاقته بالله سبحانه وتعالى الحق العدل الودود الرحمن الرحيم، بحيث يقبل الطفل، في قوة وفي صبر وفي تشوق وفي حب، على الله سبحانه وتعالى وعلى الحياة، ودوره فيها، وعلى الدار الآخرة ولقاء

الله فـيها، أي تلقيـن الصغير لمبادئ الدين وقيمه وغاياته وعقائده يجب أن تكون في مراحل التكويـن الأولى إيجابية تنمي مشاعر الحب والشوق والتطلع والإنجاز، لأن من يحب ويتطلع ويعـتز يقبل ويؤدي ويتفانى ويضحي ويصبر، أما من يخاف ويرهب، فهو يحذر، وينفر، ولا يعمل إلا بالحد الأدنى وتحت ألوان من الصراع والتمزق النفسي المستمر والذي يلازمه طوال حياته نتيجة مشاعر الإرهاب التي تنفره عن الإقبال من ناحية، وتدفعه إلى الخضوع والإذعان مـن ناحية أخرى، فيكون التكاسل وعدم الانتظام والتقصير والتفاوت والتناقض والأداء بالحد الأدنـى وعلـى غير حماس أو إتقان، وهو ما نلحظه من صفات أكثر المسلمين في العصور المتأخرة.."[11]

ومـن الأمور التي ينبغي الالتفات إليه في مجال مراجعة الوسائل التعليمية التقليدية، ضـرورة الإسـراع فـي تمكيـن المعلم من أوجه الاستفادة مما جادت به الأيام من وسائل وتكنولوجـيات تعليمية حديثة بحسبانها وسائل تقصر المسافات، وتعصم الجهود والأوقات من الضـياع، وسوء الاستغلال، فليس من الحكمة ولا من الإسلام في شيء الجمود على الوسائل التعليمـية التقلـيدية وتقديسها، بل لا بد من تحديثها والتخلص من كافة الوسائل التقليدية التي تجاوزتها الأمم المتمدنة والمتقدمة.

وإننا لا نرى من مانع في إعادة النظر بصورة جذرية في السنوات التي تنفقها كليات التربـية وكلـيات إعـداد المعلمين في إعداد المعلمين، فللزمن قيمة، وهو سيف إن لم تقطعه قطعـك، وما كان تحصيله من معلومات ومصادر ومراجع يتطلب سنوات في الماضي، غدا تحصـيله الـيوم لا يتطلب سوى شهور بل أيام، مما ينبغي أخذه بعين الاعتبار، نعني أنه لا محظـور الـيوم بتاتًا في قصر الفترة الزمنية التقليدية لإعداد المعلم مادام ثمة محافظة على الجودة والنوعية، فالعبرة ليست ولم تكن أبدًا في عدد السنوات، ولكنها كانت وينبغي أن تكون دومًا وأبدًا في النوعية والجودة.

وإننـي لعـل يقيـن بأن ثمة حاجة إلى إعادة النظر بشكل جذري في سني الدراسة والتحصـيل علـى جمـيع المـراحل التعليمية بدءًا بالمرحلة الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية، ذلك لأن جملة من المعلومات التي كان تحصيلها متوقفة على المدرسة، غدت اليوم في متناول الأطفال عبر مختلف مصادر التعلم وخاصة الأجهزة السمعية والبصرية وغيرها،

---

[11] انظر: أزمة العقل المسلم ــ عبد الحميد أبو سليمان ــ ص١٩٣ وما بعدها باختصار.

مما يدعو إلى تجاوز تلك المعلومات واستبدالها بمعلومات متقدمة، وينتج عن ذلك إعادة النظر في سني الدراسة والتحصيل. وبطبيعة الحال، لم يقل أحد من الخلق بأن سني الدراسة المتبعة اليوم في المؤسسات التعليمية كلها تسمو على المراجعة والتقويم في ضوء ما تستجد في واقع الناس من تقدم وتطور وتغير، فالشأن في تحديد تلك السنوات كالشأن في أي أمر اجتهادي قابل الخطأ والصواب، وخاضع للمراجعة والتقويم والتعديل والتطوير والتغيير.

ولهذا، فليس من حصيف القول ولا من سديد الرأي النظر إلى الاجتهادات التربوية المتصلة بسني التعليم ومناهجه ووسائل كأنها اجتهادات مقدسة ودائمة وأبدية، بل ينبغي ويجب أن تخضع بما تخضع لها كافة الاجتهادات من مراجعة وتقويم وتسديد وتطوير وتغيير إذا لزم الأمر في بعض الأحيان. وهذا ما درجت عليه كثير من الأمم المتمدنة والراغبة في التقدم والتطور والنهضة، وتتعهد تلك الأمم مؤسساتها التعليمية مناهج ووسائل وقضايا بالمراجعة الدائبة والتقويم المستمر، وتحدث فيها الكثير من التعديلات والتطويرات والتغييرات لتلبية ما يستجد في واقعها وأحوالها.

وما تخلي كثير من الدول الواعية والمتقدمة عن حصر التعليم الجامعي في مؤسساتها في أربع سنوات عنا ببعيد إدراكًا منها بأن ثمة جملة من المعلومات والمعارف التي كان التعليم الجامعي يوفرها غدت اليوم متوافرة في المراحل التي قبل الجامعة، وبالتالي، فلا حاجة إلى إعادتها وتكرارها في المرحلة الجامعة، ونتيجة لذلك، تقلصت سنوات الدراسة في عدد من المؤسسات التعليمية الراقية في العالم الآخر من أربع سنوات إلى ثلاث سنوات..!!

وما الذي يضير اليوم أن يقتصر سنوات إعداد المعلم في ثلاث سنوات وخاصة إذا تم الاستعانة بالوسائل التعليمية الحديثة التي تقصر المسافات وتوفر المعلومات في أسرع الأوقات؟؟ وما الضير أو الضيم في تغليب الجانب النوعي والكيفي على الجانب الكمي والعددي في إعداد المعلم؟ إن الأمم التي ننافسها ونسعى إلى اللحاق بها في مجال التقنية والاتصالات تتقدم يوميا خطوات سريعة، ليس من الممكن منافستهم ما لم نضاعف العمل والجهد في كل شيء نقدم عليه في هذا العصر.

إن مأساتنا ــ أيها السادة ــ أننا لن نراجع هذه القضايا بإرادتنا وبرغبة صادقة منا، حتى إذا ما طولبنا بها بحق وبدونه، تسارعنا إلى الإذعان والخضوع والتصديق، وهذه منهجية في التغيير والترقي لا بد للأمة من التخلص منها، ولا بد لنا من التفكير الجاد والتخطيط

المتمعن في كل ما نقدم عليه من عمل، بل لا بد لنا من مواظبة محاسبة أنفسنا ونقد ذاتنا بإرادتنا وبطريقتنا وبالكيفية التي نريد ونسعى إليها؛ وفي ذلك صلاحنا وصلاح أمرنا وأمر أمتنا جميعًا.

ومهما يكن من شيء، فإن الحاجة ماسة إلى القيام بمراجعة صادقة وأمينة لمحتوى المناهج، وللوسائل التعليمية المستخدمة في تقديم ذلك المحتوى إلى النشء؛ ويوم أن تتحقق هذه المراجعة الهادئة والشاملة على المستويين المذكورين، كان في الإمكان عندئذٍ إعداد معلم قادر على تخريج جيلٍ من النشء متكامل وواعد وشاهد وحاضر.

٦. تجربة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا في التخلص من هذا التحدي:

منذ تأسيس الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا قبل عقدين من الزمن، تبنت بصورة واضحة فكرة التكامل بين القيم والمعارف من جهةٍ، وبين علوم الدين وعلوم الدنيا من جهةٍ، وصممت كافة برامجها ومقرراتها وأنشطتها من أجل تحقيق هذا التكامل، وفرضت الجامعة نظام التخصص المزدوج على جميع الطلبة الدارسين بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، وكلية الحقوق، ومقتضى هذا النظام وجوب اختيار الطالب تخصصين، يكون أحدهما تخصصا رئيسيًّا، ويكون الآخر تخصصا فرعيًّا، فإذا كان دارسًا بأحد أقسام معارف الوحي (علوم الدين: فقه وأصوله، كتاب وسنة، أصول دين ودعوة)، فإنه يجب عليه أن يختار أحد فروع العلوم الإنسانية من علم سياسة، وإعلام، وعلم نفس، وفلسفة، وعلم اجتماع، وعلم تاريخ وحضارة؛ وأما إذا كان دارسًا بأحد أقسام العلوم الإنسانية (علوم الدنيا السابق ذكرها آنفًا) فإن عليه أن يختار أحد فروع معارف الوحي (=علوم الدين) تخصصا فرعيًّا، ويعد هذا النظام إجباريًا وإلزاميًا على جميع الطلبة الدارسين بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية.

وتطبق الجامعة هذا النظام على مستوى كلية الحقوق بين قسم الشريعة وقسم القانون الوضعي، بحيث يجب على الطلبة التخصص في أحدهما تخصصا رئيسيًّا وفي الآخر تخصصا فرعيًّا. وقريبا ستبدأ الجامعة في تطبيق هذا النظام الفريد في كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية.

وأما بالنسبة للكليات التي تعرف بالكليات التطبيقية من طب وهندسة وعلوم وصيدلة وسواها، فإن الجامعة تتبنى فكرة ربط هذه العلوم والمعارف بالقيم الإسلامية الخالدة، وتطالب جميع أساتذتها بالتطرق والتعرض للأبعاد الإسلامية في كافة المقررات والموضوعات التي

يدرسونها في هذه التخصصات. وتعميقًا لفكرة التكامل، أنشأت الجامعة مؤخرًا لأساتذتها دبلومًا عاليا للدراسات الإسلامية للمتخصصين في غيرها (=العلوم الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية)، ودبلوما آخر عاليًا للدراسات الإنسانية للمتخصيصين في الدراسات الإسلامية. وتشجع الجامعة أساتذتها الالتحاق بأحد هذين البرنامجين أملاً في تزويدهم بالأسس والمبادئ العامة التي ينبغي على الأستاذ تحصيلها ليتمكن من التصدي بمختلف التحديات التي تجابه واقعه وواقع الطلبة الذين يسعى إلى إحداث تأثير إيجابي فيهم.

إن فكرة التكامل حققت للجامعة إقبالا منقطع النظير، كما أنها فتحت باب التوظيف والعمل أمام خريجيها بصورة سريعة ومذهلة، إذ إنه من النادر ألا يجد الخريج وظيفة يعمل فيها بعد التخرج، فإن تعذر العثور على عمل في مجال تخصصه الرئيسي، لاذ بتخصصه الفرعي، فيجد فرصة العمل أمامه مواتية، ولهذا، فلا غرو أن يجد المرء خريجي الجامعة يحتلون مواقع تأثير في مختلف وزارات الدولة وإداراتها الهامة، بل إن ثمة مؤسسات تجارية ومنظمات إنسانية تتسابق في توظيف خريجي الجامعة لتميزهم بالجمع بين المعرفة المهنية والمعرفة الدينية مع الالتزام بآداب الإسلام وأخلاقه في التعامل والتواصل مع الآخرين. وفضلا عن ذلك، فإن فكرة التكامل أبعدت عن الطلبة شبح التطرف والغلو والمغالاة والإرهاب، إذ إنه من الصعب أن تلجأ الشخصية المتكاملة إلى هذه الأخلاقيات الشاذة التي تنشأ نتيجة غلبة النظرة الأحادية على نفوس أهلها.

ومهما يكن من شيء، فإنه لا مناص من العودة المباركة إلى التكامل الذي ينتج عنه الاعتدال والوسطية التي يقوم عليها منهج الإسلام في تعليماته وأوامره ونواهيه. وتعد فكرة التكامل الفكرة التي يمكن لها أن تقضي قضاءً مبرمًا على الفصام النكد، كما أنها تمكن المعلم من مجابهة سائر التحديات بفاعلية واقتدار وثقة، إذ إنها كما أسلفنا تعد وصلاً مكينًا وأمينًا بين المثال والواقع، وبين النظرية والتطبيق، وبين عالم الغيب وعالم الشهادة، وهذا هو المنهج الذي أرسى قواعده رسول الإسلام ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ منذ مئات القرون، بيد أننا انحرفنا عن هذا المنهج، وبحثنا عن بديل له، فكان نصيبنا التيه والضياع والتقلب المستمر بين المناهج الشرقية والغربية، فأسهمنا بطريقة مباشرة في إيجاد الواقع المرير الذي نعيش فيه اليوم، والظروف الاستثنائية التي تمر به الأمة في جميع أنحاء المعمورة!.

فالمخـــرج هـــو العودة الصادقة إلى المنهجية الإسلامية الأولى لم تعرف فصلاً بين الديني والدنيوي، ولا آمنت بفصام بين علوم الدين وعلوم الدنيا، بل كانت دومًا وأبدًا منهجية قائمـــةً على الوسطية والاعتدال والنظرة التكاملية والترابطية والشمولية إلى العلوم والمعارف والقـــيم بعيدًا عن جميع أشكال الغلو والتطرف في الفكر والسلوك والعمل والمظهر والمخبر. والله المســـؤول أن يـــأخذ بأيدينا ويوفقنا إلى ما فيه صلاح ديننا ودنيانا إنه نعم المولى ونعم النصير.

وبهذا نصل إلى نهاية هذه الورقة المتواضعة سائلا المولى الكريم أن يلهمنا الصواب ويعصمنا من الزلل والخطل، ويرزقنا الإخلاص في القول والعمل، إنه ولي ذلك وعليه قدير.